الأسرة وقضية غياب الزوج الطويل بالغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي

– محاولة لرصد واقع الأسرة ومشاكلها–

The Issue of the Family and the Long Absence of the Husband in the West During the Almoravide Era : a Depiction of the Family ‘s Genuine State and its Constant Dilemmas

د.بن خيرة رقية *

جامعة مولود معمري، تيزي وزو- الجزائر

ro.benkhira@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/10/03 تاريخ القبول : 2020/12/02 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تبحث في واقع الأسرة وتحدياتها بالغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي، وذلك بتسليط الضوء على قضية غياب الزوج الطويل التي نحسب أنّها واحدة من أهم التحديات التي اعترضت الأسرة الوسيطية بالنظر إلى ما أحدثته من آثار اجتماعية ونفسية، يبقى تقصيها وتتبعها ضمن المتون المصدرية رهين تتبع البواعث التي أملتها والإحاطة بسياقاتها، ضمن مقاربات متعددة ومتقاطعة يتلاقح فيها المعطى التاريخي بالمعطى الاجتماعي والنفسي، قصد صياغة رؤية بحثية متجددة تتجاوز مستوى الوصف نحو عملية تحليلية وتأويلية تعطي للعامل الاجتماعي والنفسي أهميته في فهم تاريخ الأسرة وقضاياها خلال العصر الوسيط.

الكلمات المفتاحية: الأسرة؛ غياب؛ الزوج؛ بواعث؛ آثار؛ اجتماعية؛ نفسية.

Abstract:

This particular study sheds light on the reality of the family and its most and encountered challenges in the islamic West during the Almoravides Era, Further tackling the issue of the long absence of the

* المؤلف المراسل

husband and its social and psychological side effects within the community, with the use of intersecting approaches the historical background meets the social and the psychological one while discussing this noticeable subject; thus offering a whole new reserech vision that goes beyond the level of abstract description towards an analytical and an interpretive process that helps in understanding the history of the family and its complicated cases during that era .

***key words**:* the family; absence; the husband; side effects ; factors ; social; psychological.

مقدّمة:

حظي موضوع الأسرة باهتمام الدارسين على أكثر من صعيد، إن على الصعيد المعرفي والدعوة إلى التحرر من عقال الوثيقة التاريخية وقوالب المدرسة الوضعية الضيقة، أو على الصعيد المنهجي الذي بدا أكثر انفتاحا على المواضيع المدروسة والمناهج المستخدمة، مما كان له الأثر الايجابي في معالجة قضايا أسرية هامة ظلت إلى زمن غير بعيد حكرا على علمي الاجتماع والنفس باختصاصاتهما الفرعية، غير أنّ تداخل مجالات الاختصاص بين مختلف العلوم الإنسانية وتكثيف محاولات التلاقح المعرفي فيما بينها، أقحمها ضمن انشغالات الدرس التاريخي وأسس لرؤى بحثية متجددة في طروحاتها ومخرجاتها.

إنّ الانطلاق من واقع دراسات عنيت بموضوع الأسرة وقضاياها باستخدام أدوات منهجية رصينة وبمقاربات تاريخية متقاطعة، بقدر ما يحتم علينا تثمين جهودها البحثية؛ فإنّه يسوغ لنا مشروعية السؤال عن قضية غياب الزوج وحظها من البحث والدراسة؛ إذ نحسب أنّها ما تزال بحاجة إلى مساءلة عميقة، لأهميتها في الكشف عن واقع الأسرة وتحدياتها خلال العصر الوسيط وبالنظر إلى ما أفرزته من إشكاليات فقهية واجتماعية مست بشكل مباشر الأسرة، وطرحت معها قضايا شائكة عكست وبوضوح واقعها وتأثيراتها.

ينبثق طموح هذه الدراسة من محاولة تجاوز الأفق الوصفي لقضية غياب الزوج في الأسطوغرافيا التاريخية لينفتح على أسئلة البواعث والآثار، وذلك في إطار اهتمامنا

بدراسة واقع الأسرة ومشاكلها بالغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي، بما لا يلغي منجزها المعرفي ولكن يعيد تكييفها في أفق بحثي يتجاوز مستوى الوصف نحو عملية تحليلية وتأويلية، ومع مشروعية هكذا طرح غير أنّه لا يخلو من محاذير منهجية ومعرفية جمة أقلها طبيعة الموضوع الذي لا يعدو أن يكون حدثا عارضا في الخطابات التاريخية.

كما لا يعدو أن يكون أمرا مألوفا في الوسط الأسري الذي اعتاد عليه إمّا لأسباب علمية أو تجارية أو دينية، وإن كنّا نلمح في بعض خطاباتها ما يلغي فرضية الاعتياد؛ حيث أضحى هذا الغياب وبموجب ظرفيات تاريخية معينة تحديا اجتماعيا ونفسيا وجب على الأسرة مجابهته إذا ما طالت فترته وتعدى نصابه القانوني، لذا فرهان البحث هنا لا يقتصر على محاولة الإجابة عن الاشكالية المطروحة أعلاه، وإنّما يتعداه إلى صياغة طرح يربط بين نظر المؤرخ والواقع الاجتماعي المدروس بوصفها إحدى الاشكاليات التي همت صناعة المؤرخ وتفعيل ممارسته المعرفية بما يتوافق ومتطلبات التجديد في الكتابة التاريخية.

1-الزوج بين جدلية الحضور والغياب: قراءة في المعطى الفقهي والتاريخي

يقتضي الحديث عن مسألة غياب الزوج في الخطابات التاريخية الإشارة إلى كونها عدت من الأمور المألوفة في الأسر المغربية والأندلسية التي ألفته لأسباب علمية أو تجارية أو دينية، على أنّ ما تضمنته كتب النوازل الفقهية من قضايا في هذا السياق إنّما هي حالات شاذة رفعت للفقيه من طرف زوجة ضاقت ذرعا من غياب شريكها، ازدادت وطأته تحت طائل الفقر والخصاص المادي، وذلك قصد البت في وضعيتها وايجاد حلول عملية لما أصبحت تكابده من الفاقة والعوز في ظل غياب المعيل وانعدام موارد للنفقة[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الغياب ارتبط عموما بحركة الإنسان وسعيه الدؤوب إلى تأمين حاجاته المادية وإشباع رغباته؛ فرغم بلوغه مرحلة الاستقرار الاجتماعي وانتقاله من طور الحركة والتنقل إلى طور البناء والتجمع[2]، إلاّ أنّه استمر في تحركاته وتنقلاته دافعه إلى ذلك طبيعته التواقة إلى المعرفة وارتياد المجهول؛ فظل في تطلع دائم لمعرفة ما قد تحويه الآفاق البعيدة التي عد الترحال السبيل الوحيد لاكتشافها[3]، رغم ما كان يصحبه من

غياب جَهلت مدته ومآلاته، إذ هو" مشتهر في سائر الأمصار كثرة الأسفار واختلاف أمر الغيبة في المقدار"[4].

يكشف لنا التنقيب في المتون المصدرية سعي الزوج إلى التزامه بشرط عدم المغيب عن الزوجة المقرر منه طوعا في عقد نكاحها[5]، لكن صادف وأن أخل بهذا الشرط متجاوزا المدة القانونية التي حددها الفقهاء بستة أشهر أو عامين في حالة قيامه بأداء فريضة الحج ليصل إلى غياب تجاوزت مدته أربع سنوات[6]، ولعل هذا التأرجح الذي أججته الرغبة في الترحال من جهة، وأخمدته اكراهات الواقع من جهة أخرى تُظهره رسائل المتصوف ابن العريف(ت536هـ/1141م) إلى مريديه وأصحابه من المتصوفة؛ إذ كثيرا ما أعرب فيها عن رغبته في السفر ولقائهم، واصفا ما حز في نفسه بسبب عدم قدرته على ذلك، لاضطلاعه بمهمة التدريس وبالأعباء الأسرية[7].

على أنّ محاولات الفقهاء تحديد مدد الغياب، وهي مدد وجب الإشارة أنّها عرفت سجالا فقهيا تباينت فيه تقديرات هؤلاء حسب انتماءاتهم المجالية، كما خضعت في الكثير من الأحيان لمنطق العادة والعرف[8]، لم يحل في الواقع دون حدوث حالات من الغياب الطويل خلّفت آثارا اجتماعية ونفسية انتفى معها استقرار الأسرة وتماسكها.

ينسحب القول ذاته على ما قدموه من إجراءات فقهية فصلّت في أشكال الغياب بين قريب قدره ثلاثة أيّام وبعيد قدره ستة أشهر[9]، وتلك الفاصلة في حالاته إن كان منفصلا يعقبه إيّاب أو متصل تعذر معه إيّاب[10]، وهي كلها إجراءات قانونية بقدر ما تفصح لنا عن عناية المنظومة الفقهية بتنظيم شؤون الأسرة وتسوية مشاكلها، بقدر ما تفصح لنا عن حدوث انتفاء بين النّص والواقع، انتفاء جعل الزوج في تأرجح دائم بين سلطة التماثل ومسعى التفاعل، أي بين حضور حاول الامتثال لالتزامات الأول وغياب سعى للتفاعل مع اكراهات الثاني.

تُظهر رصد حركية الفقه في تفاعلاته مع قضية غياب الزوج عن اتساع انشغالاته تماشيا وما فرضته هذه القضية من وقائع مستجدة؛ فإلى جانب قضية المدد القانونية التي

حددها الفقهاء كآجال منقضية تسمح للزوجة بأن تطالب بحقوقها الشرعية والاجتماعية، طفت على السطح قضايا أخرى تمثلت في قضية النفقة واشكالية أخذ الزوجة بأمرها في حالة طول غيبة الزوج وإخلاله بشرط عدم المغيب[11].

على أهمية ما جادت به هذه الإشارات المصدرية من معلومات شحذت همتنا في المضي قدما نحو بحث هذه القضية، وأزالت عنّا عبئا وثائقيا ثقيلا؛ إذ لا تاريخ بدون وثيقة، إلاّ أنّ المتتبع لما ورد فيها يلاحظ اغفالها الحديث عن حالات الغياب الطويل الذي ظلت أسبابه مبهمة وآثاره مجهولة؛ فالمدونة النوازلية التي ما فتئت أهميتها تتزايد أكثر فأكثر في ترميم نتوءات البحث التاريخي؛ تحضر قضية الغياب ضمن بنيتها الخطابية كمسائل امتحنت في الواقع مقدرة الفقيه الاجتهادية في إيجاد تخريجات فقهية واستنباط أحكام شرعية، عكست في مجملها خلاصة تعامل العقل الفقهي مع واقعه الاجتماعي.

بينما جرى حضورها في كتب العقود والسجلات ضمن عقود تقنية صيغت لتكون نماذج يحتذي بها أهل الصنعة لتساعدهم على إتقانها[12]؛ فما تضمنته هذه العقود حول شرط عدم المغيب في عقد النكاح[13]، أو عقد اقرار بمغيب وطلب نفقة[14]، اتخذت بعدا تقنيا ونظريا أكثر منه واقعا معيشا، وإن كنّا لا نعدم أهميتها كونها كتبت لتلبية الضرورة الاجتماعية وما أملته حاجة النّاس إليها.

2-حالات الغياب الطويل: بواعث وتجليات

لئن كانت الإشارات المصدرية المبثوثة في المدونة النوازلية وكتب العقود والسجلات حالت دون إلمامنا بحالات الغياب الطويل وبواعثها؛ فلنا في الكتب الإخبارية والتراجم والتصوف مرتكزات بديلة تؤهلها لترميم هذه الفجوة وتغطية ذلك النقص، رغم اختلاف منطلقاتها التدوينية ومرجعية مؤلفيها في قراءتهم لقضية الغياب على المستويين الأفقي والعمودي، وعلى العموم تمظهرت حالات الغياب الطويل ضمن نسيجها البنائي في الحالات المذكورة أدناه:

أ–الأسر والفقد: أثر الحروب في الغياب

الحديث عن غياب الزوج بسبب الأسر والفقد في المجتمعين المغربي والأندلسي خلال العصر المرابطي هو حديث بالضرورة عن الحروب التي شهدها هذا العصر وانعكاساتها؛ إذ لا يخفى علينا ما أحدثته تداعياتها الاجتماعية من تصدع في بنية الأسرة واستقرارها، حيث بات مشهد الرجال الأسرى والنساء الأيّامى والأطفال اليتامى من المشاهد المصاحبة لها[15]، على أنّ قراءة تداعياتها على غياب الزوج بناء على حضورها المكثف في الحوليات الوسيطية ليس بالأمر الهيّن، فالقاريء في خطاباتها قد لا يظفر بمادة وفيرة تخدمه إلاّ بإشارات غير ذات صلة جاءت في سياق الحديث عن الحملات العسكرية ومددها وعدد الجنود المنضوين فيها.

وهي إشارات على قلتها أشاد الباحث حميد تيتاو بأهميتها في فهم مسألة الغياب المطول انطلاقا من الافتراض الذي يقضي القول:" أنّ معظم هؤلاء الجنود كانوا أزواجا يعيلون أسرهم وعائلاتهم، وأنّ احتمالية موتهم أو وأسرهم أو فقدهم تبقى واردة"[16]، في ظل ما كانت تفرضه طبيعة الحروب وانعكاساتها التي تبقى رهينة حالتي النصر أو الانهزام.

وإذا ما تركنا جانبا ما شكلته الحروب في الذهنية السياسية من اقترانها بمسألة الجهاد والدفاع عن بيضة الإسلام أو اعتبارها أهم مرتكزات تثبيت الحكم وبسط السلطة المجالية؛ فالظاهر أنّها لم تكن كذلك بالنسبة للأسرة حيث مثلت الحروب في متخيلها علامة فارقة ومرحلة تحول مفصلية نقلتها من وضع كان فيه رب الأسرة حاضرا إلى وضع آخر ساده غياب طويل نتيجة وقوعه في الأسر أو الفقد.

وهذا ما تؤكده الشواهد التاريخية التي تحدثت عن نساء المفقودين في معركة كتندة اللواتي فقدن أزواجهنّ فبادرنّ لرفع قضيتهنّ إلى الفقهاء بغية الأخذ بشرط المغيب[17]، والأمر ذاته تكشفه لنا أحد النّصوص المنقبية حول امرأة أُسر زوجها ولها منه أولاد عدة اضطرها طول غيابه وضيق حالها لرفع شكواها إلى المتصوف أبي الريحان الأسود الذي بشرها بقدومه في يوم معلوم[18]، ومع أنّ النّص يندرج في إطار الكرامة الصوفية التي أعلت

من مقدرة المتصوف في علم المكاشفات وقضاء الحاجات، غير أنّه عكس واقع زوجة يائسة ازدادت مشقتها بضيق حالها وتحمل أعباء أولادها الكثر على حد وصف التادلي لهم، الأمر الذي دفعها للجوء إلى المتصوفة لرفع معاناتها.

ب–السجن الطويل بين العقاب والغياب

يمثل السجن هو الآخر أحد الأسباب التي كانت وراء غياب الزوج الطويل بالنظر إلى طبيعته كعقوبة ردعية اقتضت بإطالة فترته، حيث أدرجته الدولة المرابطية ذات التوجه المالكي ضمن نظامها العقابي تأسيا بما أقره إمام المذهب من وجوب إطالة حكم المسجون في الدم والشبهة[19]؛ فكان أكبر عقاب للأمير يوسف بن تاشفين(ت500هـ/1106م) الاعتقال الطويل[20]، كما تعج كتب النوازل والأحكام من جهتها بالعديد من الإشارات حول عقوبة السجن الطويل للعديد من الجرائم والانحرافات الواقعة في المجتمع المرابطي[21]، وهو اتساع تشي ملامحه وقسماته بتعميم عقوبته بحيث لم تعد تقتصر على جرائم القتل والتدمية.

أمّا على مستوى الأسرة ستغدو عقوبة السجن الطويل باعثا قويا لغياب الزوج السجين عن وسطه الأسري وانقطاع تواصله بأهله حتّى أنّهم كانوا يتمنون له الموت من طول سجنه وفق ما أشار إليه الفقيه ابن رشد الجد[22]، وهو ما يجلي حالة اليأس التي كانت تعشيها الأسرة جراء هذه العقوبة، وما صاحبها من آلام نفسية ومعاناة اجتماعية فاقت أحيانا تلك الناتجة عن الموت الذي أضحى في منظورهم أرحم وأخف وطأة على سجينهم.

ج–النفي والتغريب: الغياب القسري

يتجلى النفي والتغريب في المتن المصدري كظاهرة سياسية؛ إذ لا يعزب عن بالنا ما كان للانقلابات السياسية وانهيار الدول القائمة بقدوم أخرى، فضلا عن الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك خيوطها على المستوى السلطوي، من دور بارز في وجودها ضمن تلابيب الحدث التاريخي بشكل متواتر، جعل من النادر أن تخلو الروايات التاريخية

المؤرخة للسلالات الحاكمة وتداولها على السلطة من إشارات صريحة أو ضمنية عن حدوثها، دليلنا على ذلك ما عمد إليه الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين حينما نفى الملك المعتمد بن عباد(ت488هـ/1095م) إلى أغمات بعد قضائه على ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس[23].

على أنّ الاستشهاد ها هنا بتجربة المعتمد بن عباد ليس لبعدها السياسي وخلفياته التي أسالت الكثير من الحبر بالنظر إلى تباين أراء الباحثين حولها وتضارب مواقفهم، بل لبعدها الاجتماعي إذ أضحت من التجارب التاريخية والاجتماعية الحية التي يخولنا الاستشهاد بها الكشف عما قد تحدثه حالة النفي من تأثيرات اجتماعية ونفسية على الأسرة، وهي تأثيرات أبدع المعتمد بن عباد في نقلها ضمن قالب شعري محرك للعاطفة والوجدان مستغلا فيه عنصر الأسرة أيّما استغلال[24].

هذا وتشكل حالة المتصوف ابن العريف حالة الزوج الذي تم نفيه وتغريبه قسرا عن أسرته، ولقد قرأنا سلفا في سيرته الذاتية إيثاره البقاء مع أسرته على حساب نزوعاته الروحية وتوجهاته الصوفية، ولكن شاءت صروف الزمن وتغيراته أن يتم ابعاده كرها عن بلاده الأندلس على إثر سعاية من أحد فقهاء المالكية[25]، ودون الخوض أكثر في ملابسات القضية وحيثياتها مما يحيد بنا عن مقصدنا، نقول أنّ النفي والتغريب عدا من البواعث القوية التي أطالت من غيبة الزوج غيبة قسرية مبررة بمسوغات سلطوية وباختيارات سياسية.

ج–الرحلة الدينية والعلمية: رحلتي العبادة والعلم

يعد الحج من أسمى الرغبات الدينية وأقدسها التي سعى المغاربة والأندلسيين إلى بلوغ مرامها ونيل مرادها، فيمموا بذلك وجهوهم شطر المشرق تلبية منهم لنداء الواجب المقدس وللتحصيل المعرفي، الذي عدت الرحلات الحجية فرصة سانحة للتزود به عبر لقاء كبار العلماء والمشايخ والتردد على المراكز العلمية المتواجدة هناك، وهو ما تطلّب غيابا

طويلا أجازه الفقهاء وحددوا مدته بعامين ليصبح الحج في حالات استثنائية فرض كفاية كفترات الحروب وانعدام الأمن[26].

تطالعنا كتب التراجم بنماذج عديدة عن علماء شدوا الرحال إلى المشرق وجاوروا به سنوات طويلة بعيدا عن أسرهم، ولعل تفطن بعضهم إلى ما قد تخلفه هذه المجاورة الطويلة على أسرهم دفعهم أحيانا إلى اصطحابهم في رحلاتهم؛ حيث نقرأ في ترجمة العالم أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي(ت478هـ/1085م) أنّ والداه اصطحاباه إلى المشرق وجاوروا به أعواما جمة[27].

ويبدو أنّ محاولة تقفي كل ما له صلة مباشرة بموضوعنا ضمن متونها تبدو قليلة جدا مقارنة بحجم الرجال الذين ارتحلوا؛ فهذا النوع من المصادر انصبت اهتماماته على رصد الجانب العلمي على حساب معطيات بيوغرافية أخرى لو تم الالتفات إلى ذكرها لغطت نقائص كثيرة في هذا الجانب، كما أنّ مسألة التحصيل العلمي المكثف اقترنت في ذهنية هؤلاء بطول الغيبة وكثرة المجاورة التي باتت من المعايير الدالة على مكانة العالم وعلو كعبه بين أترابه، وليس أدل على ذلك من تردد إشارات لعلماء أطالوا الغيبة وجاوروا هناك أعواما كثيرة بمحاذاة ذكر مكانتهم العلمية والاجتماعية.

د–التجارة بين طموح المكسب وطول المغيب

تمتح التجارة أهميتها في قراءة بواعث غياب الزوج الطويل خلال العصر المرابطي من طبيعتها كنشاط خارجي ساهم في غيابه عبر اتساع شبكة معاملاته التي شملت بلاد السودان والمشرق الإسلامي وأوروبا المسيحية، ما أعطى لمفهوم التاجر وصفته بعدا دوليا أضحى يخص حسب إحدى الباحثات ذلك الصنف المنخرط في التجارة الدولية ولمسافات بعيدة[28]، نظرا لما كانت تدره من أموال وأرباح طائلة، هيّأت لممتهنيها تبوأ مكانة مرموقة ضمن مجتمع كانت له بناه الرمزية في تصنيف فئاته وشرائحه[29].

ولا غرو أن تصف المتون المصدرية ثراء هؤلاء التجار ومكتسباتهم المادية والمعنوية؛ حيث جاء في وصف الإدريسي لأهل أغمات الذين امتهنوا تجارة القوافل

الصحراوية:"...ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا"[30]، والراجح أنّ هذه المكتسبات هي ما زادت من ولعهم بها، رغم ما كانوا يتجشمونه من مخاطر فصلّ فيها صاحب نزهة المشتاق قولا ووصفا[31]، وأشار إليها ابن خلدون في مقدمته حينما تحدث عن التجار وأصنافهم واصفا وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية[32].

على أنّ توصيف ابن خلدون وللأمانة شمل التجارتين المشرقية والصحراوية اللتان وإن اختلفتا من الناحية المكانية والجغرافية، لكنّهما تشابهتا من الناحية الزمنية والتاريخية إلى الحد الذي جعل التجارة إليهما تؤول غيابا طويلا لبعد المكان ومشقة الوصول إليه، ناهيك عن احتمالية التأخير في المسير أو بطلانه لإحدى العوائق كخوف الطريق أو تعذر الريّاح إن كان سفرا في البحر[33]، والذي لم يكن بمعزل عن المخاطر التي كانت تعترض مسالكه التجارية، لعل أبرزها ازدياد النفوذ النورماندي وسيطرته على البحر الرومي آنذاك.

بناء على هذا نقول أنّ امتهان التجارة ولا سيما الخارجية منها عد باعثا قويا لغياب الزوج التاجر لسببين: تمثل الأول في امتدادها لمسافات بعيدة واستغراقها مدة زمنية طويلة، والثاني لما تخللها من عراقيل ومعوقات أبطأت في الكثير من الأحيان من مسيرته وتقدمه وبالتالي أخّرت عودته لذويه وأسرته.

هـ-السياحة الصوفية: غياب جغرافي أم وجودي؟.

إنّ أول ما يثير الانتباه عند قراءتنا للنصوص الصوفية قصد رصد أثر السياحة في الغياب الطويل أنّ حضوره في بنيتها الخطابية، جاء في إطار ثنائيات جدلية تقابل فيها الروحي مع الجسدي والجغرافي مع الوجودي، وتمايز فيها غياب السائحين عن غياب العارفين[34]، وهي ثنائيات لطالما كانت مدار جدل وسجال فكري بين المتصوفة؛ إذ تباينت أراءهم بشأنها بين قائل بأولية السياحة الروحية على الجسدية، وبين معطي الأخيرة أهميتها في الارتقاء والتدرج في مقامات السالكين؛ فابن العريف ومن منطلق عدم مقدرته على السياحة الجغرافية آثر نظيرتها الوجودية معتبرا إيّاها خاصية العارفين

والمحققين[35]، أمّا ابن عربي فقد ميز بينهما معتبرا الأولى مفارقة الوطن في طلب المقصود والثانية اغتراب عن الحال لبلوغ المشهود[36].

وبصرف النظر عما أثارته هذه الإشكالية من جدل وما حملته تبايناتها من تفاضل بين معرفة الخواص والعوام، نقول أنّ السياحة الجسدية تدخل في صميم التجربة الصوفية وأبعادها؛ حيث انصب هدفها على مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الالهية ورصد تجلياتها في العالم[37]، ورغم أهميتها تلك لا تجود علينا النصوص المنقبية بأمثلة وفيرة تخص غيابهم وتأثيراته المختلفة؛ فطبيعة النّص الصوفي ذو البنية الكراميتة والعجائبية يجعل لغيابهم مفهوم وتمظهرات خاصة؛ فهم ممن تطوى لهم الأرض وتقصر لهم المسافات، فمثلا الحج الذي تقدر مدته بالعامين يمكن أن يؤديه المتصوف سفرا وشعائرا في شهر واحد وهو شهر ذي الحجة[38].

إنّ حضور تيمة الغياب بهذا الشكل الكراماتي والعجائبي ضمن النّص الصوفي وبحمولته الوظيفية والبنيوية، لا يعني أنّ هؤلاء ركنوا للقعود؛ إذ قلما نقرأ في سيرهم تخلفهم عن الالتحاق بشيخ من الشيوخ ممن ضرب بسهم وافر في علم التصوف؛ فاشرأبت الأعناق للقائه واحتشدت الجموع لملاقاته وشدت الرحال للسماع والأخذ عنه؛ فهذا المتصوف أبي جبل يعلى(ت503هـ/1109م) نهض لأغمات وريكة وجاور بهما سبعة أعوام لما سمع أنّ الصالحين بهما[39]، وبالمثل خرج أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف(توفي قبل 540هـ/1145م) في سياحة غيبته عن ابنته ثمانية عشر عاما[40].

على أنّ بعضهم ومن منطلق عدم مقدرته على المواءمة بين توجهاته الروحية وما يتطلّبه البناء الأسري من استقرار آثر حياة العزوبية، فقد برر أحدهم موقفه من ذلك بخوفه من عدم مقدرته على معاشرة الزوجة بالمعروف وفقا لما أقره الشرع[41]، ما يشي بالاهمال الأسري الذي قد يطال الزوجات في حالة غياب شركائهن، وبخاصة من كان لهنّ زوج متصوف فرضت عليه طبيعة توجهاته الدينية ونزعاته الروحية الغياب لغرض السياحة الصوفية.

قصارى القول أنّ محاولتنا الوقوف على حالات الغياب الطويل وبواعثها تشكل إجابة عن جانب هام من اشكاليتنا التي افترضت وجودها ضمن سياقات تاريخية أحاطت بها، كما ارتبطت بطبيعة نشاط الزوج وطبيعة غيابه في المتن المصدري الذي كتب بأقلام ذكورية ومن منطلقات فكرية مختلفة كانت لها نظرتها وتصوراتها الخاصة لمفهوم الغياب وخلفياته، أمّا ما تعلق بآثاره الاجتماعية والنفسية فيبقى البحث فيها رهين القراءة الفاحصة والعميقة لهذه الحالات من الغياب ضمن رؤية تنطلق من التركيز على وضعية الغائب إلى البحث في وضعية المغيب عنهم.

3–الأسرة وغياب الزوج الطويل: مقاربة للآثار الاجتماعية والنفسية

تفضي دراسة غياب الزوج الطويل إلى تعقب آثاره على الوسط الأسري بوصفه الشطر الثاني من الإشكالية التي تفترض أن يكون لهذا الغياب آثاره الاجتماعية والنفسية لا على صعيد تجربة الغائب الشخصية ومعايشته لمشاعر الغربة والحنين، بل على صعيد جماعي يحاول تمثلها على وسطه الأسري، وهو تمثل من شأنه أن يجلي أنماط العلاقات داخل فضائه وتجاذباتها، على أنّ طموح بحثه يقع على تماس مع كل من علم الاجتماع والنفس، إذ أضحى جليا للمؤرخ أنّ انغلاقه على ذاته لم يعد مجديا لخرق دهاليزه المعتمة واستكناه مغلقاته مع ضرورة تحري الحذر من الوقوع في مغبة الاسقاط المخل.

أ–الزوجة المُغِيب بين سؤال الذات والاهمال الوالدي

يشير مفهوم المغِيب إلى المرأة التي غاب عنها زوجها حسب ابن المنظور فإلى جانب تعريفه بالمصطلح من الناحية اللغوية أشار إلى حمولته الاجتماعية والثقافية في حديثه عن امرأة تعرض لها أحد التّجار أجابته بأنّها امرأة مُغِيب فتركها[42]، والظاهر أنّ هذا المصطلح أصبح يحيل إلى وضع اجتماعي خاص وصفة وجودية عرفت بها المرأة لا سيما وأنّ التعريف بها نزع عنها صفة الزوجة واستبدلها بمصطلح المرأة المغيب للدلالة على صفة اجتماعية جديدة أعطت لها كينونتها وهويتها الخاصة.

يطرح هذا الإشكال الأنطولوجي نفسه بإلحاح على المرأة المغيب التي كثيرا ما أغفلت الدراسات المشتغلة بوضعيتها الأسرية الحديث عن وجودها المعنوي وانشغالاته وتساؤلاته؛ إذ غالبا ما ارتبط الحديث عن وجودها في شقه المادي بناء على ما جاء في نوازل المرأة المغِيب، أين استتبع فيها طلب الأخذ بشرط المغيب مقرونا بدافع الحاجة والغبن المادي.

إنّ طرح مسألة الهوية هنا يعد ضربا من المجازفة المعرفية؛ فالمسألة عدت من القضايا الحديثة التي أخذت تتبلور أكثر في الوسط النسوي منذ عقود ليست بالبعيدة، بفضل الحركات الاحتجاجية التي انطلقت في الغرب وسعت إلى خلخلة الثوابت الاجتماعية والتحرر من قيود التقاليد بحمولتها الطقسية والرمزية، كان منطلقها أدب نسوي اكتسح فضاء الكتابة الذكورية[43]، لينتقل فيما بعد إلى دوائر البحث العلمي ويتحول إلى موضوع قابل للبحث اجتماعيا وفلسفيا، وتاريخيا.

علاوة على طبيعة الكتابة التاريخية التي كتبت بأقلام ذكورية ومن بينها تاريخ المرأة عموما والزوجة على وجه الخصوص؛ حيث انحصر حضورها فيما جادت به تلك الأقلام وما رامت تعريفنا به، على أنّ الأمر هنا وحسب إحدى الباحثات لا يخلو أيضا من قصور منهجي لدى بعض الباحثين الذين لم يحسنوا استغلال المصادر النوازلية[44]؛ فرغم ما يعتورها من صعوبات واستغلاق خطابها الفقهي إلاّ أنّها اختزنت حمولة تاريخية هامة تتعلق بنوازل الأسرة وقضاياها.

تستند مسألة الاستغلال النوازلي على ممارسة بحثية يكون التأويل فيها حقا مشروعا كون "أنّ النّص ليس بيانا بالحقيقة بقدر ما هو ساحة للتباين والتعارض، وأنّ الغرض منه لا يقف عند حدود معرفة ما أراد المؤلف قوله، بل تلتفت إلى ما سكت عنه القول بالذات مبيّنا ما يمارسه الخطاب من حجب واستبعاد وتلاعب"[45]. وإلاّ بما كنا سنفسر تلك النوازل التي رفعت للفقهاء من قبل زوجات رغبنّ في الأخذ بشرط المغيب، لاسيما التي لا يتضح فيها سبب طلبهنّ على غرار أخرى استتبع فيها الطلب بذكر دافع الغبن المادي أو الضرر المعنوي.

انطلاقا من هذا الفهم لطلب الأخذ بشرط المغيب ومضمراته نقول أنّ سؤال الهوية المتواري وراءه يعد أفصح مثال عن سعي الزوجة إلى معرفة ذاتيتها؛ فإذا كانت مؤسسة الزواج بأبعادها الدينية والاجتماعية تعطي للزوجة كينونتها المادية والمعنوية التي يبقى وجودها مقرونا بتواجد زوجها وحضوره الدائم بما يوفره لها من حماية لشرفها وصيانة لعرضها[46]؛ فإنّ غيابه في مثل هذه الحالة يهدد كينونتها، لتجد الزوجة نفسها في بحث عن مخرج يعيد لها تواجدها ضمن فضائها الاجتماعي الذي رهن حضورها وغيابها بحضور زوجها من غيابه.

والملاحظ أنّ سؤال الهوية لدى المرأة المغِيب لم يتبلور كوعي ذاتي انبني على واقع فهمها لجدلية العلاقة بين الأنا والآخر وتفاعلاتها، وإنّما طرحته على الأرجح من زاوية تسمح لها بإعادة تموضعها في المجتمع وتثبيت موقعها من خلال الامتثال لتقاليده المتسمة بالتكرار والثبات والتقيد بمعاييره المتشبعة بالطقسية والرمزية، أو ضمن فهمها الخاص للفروقات الموجودة بين الذكورة والأنوثة ولمعنى القوامة الذي اختزل وجودها في رمز ذكوري انطلق من الأب، الأخ، ثم الزوج[47]، ولعل هذا ما دفعها إلى الزواج ثانية دون إعلام زوجها بوضعيتها الاجتماعية وفق ما تضمنته نوازل الفترة[48]، نظرا لما كانت تتطلبه إجراءات الأخذ بشرط المغيب والتطليق من مدة زمنية طويلة، كما نلمح صدى هذا الترابط الوجودي في أمثالهم الشعبية القائلة: "زوج سُو خير من فَقد"[49].

على أنّ سعيها لإعادة تموقعها في المجتمع عن طريق الزواج ثانية خلق الكثير من الصعوبات الاجتماعية والنفسية لطفلها الذي لحقه التفريط الأبوي من الطرفين؛ ازدادت معه فجوة الفراغ الاجتماعي والنفسي[50]، ما من شأنه أن يعيد قراءة موضوع الأمومة والحضانة ضمن زاوية أخرى تتعارض فيها متطلبات الذات (الأم) ومتطلبات الآخر(الطفل).

ب–الأسرة بين الخصاص المادي والمعنوي:

لا يحتاج الوقوف على الضرر المادي الذي كان يخلّفه غياب الزوج الطويل على الأسرة جهد وعناء كبيرين لتقصيه ضمن المتون المصدرية؛ فما تضمنته نوازل الفترة من تصريحات كفيلة بأن تفصح بنفسها عما أحدثه غياب الزوج المعيل على وضع الأسرة المادي، وكيف أنّه أضحى من المشاغل اليومية التي أرقت الزوجة وجعلتها تبحث عن مخرج يسمح لها بتوفير حاجيات أسرتها وسد جوع أولادها؛ ويكفينا دليلا على ذلك نازلة تتعلق بطلب المرأة نفقتها في غياب زوجها الذي لم يترك عندها شيئا تأخذ منه نفقتها ولا مال تَعْدى فيه ولا بعث لها بشيء ولا رجع من غيبته[51].

ويبدو أنّ الوضع كان أكثر صعوبة بالنسبة للأسر التي يكثر فيها عدد الأولاد أو تتعدد فيها الزوجات وأمهات الأولاد؛ حيث يصبح مشكل الإنفاق هما مضاعفا يزيد من حالة الفاقة والعوز الأسري، نجد مثالا لذلك في نوازل ابن الحاج حيث ورد سؤال ضمنها عن رجل غاب ستة أعوام وترك ثلاث جوار في ذمته بلا انفاق وهنّ أمهات أولاد وبحاجة إلى الانفاق[52].

كما أنّ هذا التزايد العددي من شأنه أن يضع أفراد الأسرة في نزاع حول النفقة كلما تزايد عددهم وتفاقمت حاجياتهم، وهذا ما نستشفه من سؤال رفع لأبي عبد الله المازري عمن غاب بالأندلس وترك زوجة وطفلة منها وطفلا من غيرها مطلقة؛ فلما كان الآن أنفذ سبعة دنانير في المركب الأول، واثني عشر في المركب الثاني، ولم يترك لأولاده وزوجته نفقة؛ فقامت أم الطفل تريد مخاصمة الزوجة والابنة برزق ابنها"[53].

وإذا كانت الزوجة في الأسر الميسورة الحال تمكنت من مواجهة نوائب الغياب وتحملت مصاريف أولادها ونفقاتهم بفضل ثروتها أو بما تركه زوجها من أصول؛ فإنّ الزوجة في الأوساط العامة والفقيرة ورغم التكافل الاجتماعي عانت من ضنك العيش وعسر الانفاق زاد من وطأته فترات المجاعة التي كان يشهدها المجتمع بين الفينة والأخرى ومطالبة أصحاب الديون بحقوقهم المالية[54]، أو استيلاء الورثة على الأصول[55]، زيادة على أنّ أمر الاستفادة من أصول الزوج الغائب لم يكن سهلا بالنظر إلى الإجراءات

القانونية التي كان يطول تنفيذها لإثبات غيبته واستمرارها[56]، وهو ما عقّد أكثر من الوضعية المادية للأسرة واضطر الزوجة للعمل أحيانا لسد حاجياتها وحاجيات أولادها.

ولعل أبرز مثال يمكننا أن نسوقه عن أثر الغياب في اتجاه أفراد الأسرة زوجة كانوا أم أولادا إلى العمل في مهن وضيعة لا تتناسب ومستواهم الاجتماعي والاقتصادي وما ألفوه من رفاه وجاه، ما تعلق بأولاد المعتمد بن عباد الذين تشردوا بعد أسر والدهم ونفيه؛ حيث انقلبت حياتهم رأسا على عقب؛ فابنته أسرت وبيعت كجارية وصارت خادمة بعدما كانت مخدومة[57]، وابنه يحي بن محمد أبي بكر شرف الدولة احترف كتابة الوثائق بمراكش[58]، أمّا ابنه حكم بن محمد أبي المكارم ذخر الدولة فقد استقر بفاس وأصبح كاتبا لمحتسب أمي[59]، على أنّ أصعب حال من بينهم ما أصاب ابن أخيهم فخر الدولة الذي اضطره هذا الوضع إلى العمل من أجل لقمة العيش في دكان صائغ وهو ما يزال طفلا[60].

لا يقل الخصاص المعنوي المترتب عن غياب الزوج ضررا عن نظيره المادي، ذلك أنّ قيام الأسرة واستقرارها لا يرتكز على الجانب المادي لوحده، بل ويرتكز أيضا على الجانب المعنوي لأهميته في تحقيق التوافق والتوازن الأسرى، وعلى أهميته تلك فإنّه لم يحظ باهتمام الأسطوغرافيا التاريخية؛ إذ ظل ينظر إليه كموضوع ثانوي خارج عن نطاق اشتغال المؤرخ تبعا لمنطلقاته الفكرية وطبيعة فهمه للتاريخ.

ولكن أضحى من الضروري لفهم موضوع الأسرة وأنماط العلاقات السائدة فيها وسلوكيات أفرادها، الالتفات إلى دراسة هذا الجانب من تاريخ المشاعر والتاريخ النفسي لعمق تأثيره في تاريخها وتحولاتها؛ فالحيوية الاجتماعية حسب عالم الاجتماع الفرنسي ميشيل مافيزولي Michel Maffesoli، تجد تعبيرها العميق والأصيل في معطيين أساسين هما: المعطى الديني والمعطي الجنسي[61].

تسمح لنا هذه التوطئة المعرفية والمنهجية الموجزة بمقاربة أثر غياب الزوج المعنوي في جزئيته الخصاص الجنسي عند المرأة المغيب؛ "إذ لا يشك عاقل في لحاق الضرر بها من هذا الجانب على حد تعبير الفقيه أبي عبد الله المازري الذي أكد أنّ الضرر الذي يلحقها

في غياب زوجها إنّما هو كناية عن الحاجة إلى الوطء"[62]، وهو ما تؤكده النازلة الواردة عند ابن الحاج حيث سئل عن رجل غاب عن ثلاث جوار ستة أعوام، وأنّ بهنّ حاجة إلى الانفاق وإلى ما يحتاج إليه النّساء من أمر الرجال"[63].

يطفح سؤال النازلة في شقه الثاني بدلالات نفسية وحمولة جنسية تكشف واقع الزوجة وما عانته من فراغ عاطفي وجنسي في ظل غياب شريكها، كيف لا وهي التي وصفها ابن حزم بقوله: "متفرغة البال من كل شيء إلاّ من الجماع ودواعيه والغزل وأسبابه لا شغل لها ولا خلقت لسواه"[64]، وإن كان توصيفه مرتبط ببيئة اجتماعية وثقافية خاصة بناه على ما شاهده في حياة القصور التي اكتظت بالنساء الحرائر والجواري؛ ما جعلهنّ متفرغات البال له.

لكنّ توصيفه لا يعدم جانبا من الصواب من حيث تسليطه الضوء على حاجيات المرأة الجنسية خاصة وأنّ مقدار ما قد تصبر المرأة عليه دون وطء هو أربعة أشهر[65]، مما اضطرها للوقوع أحيانا في محظور الزنا لسد حاجتها تلك؛ هذا ما نقرأه في سيرة المتصوف أبي يعزى الذي امتلك كرامة الكشف والاطلاع على أحوال الوافدين إليه جعلته يفضح أحد مريديه الذي زنى بزوجة أخيه الغائب[66].

لا يقتصر الخصاص المعنوي على الزوجة لوحدها وإنّما يشمل الطفل الذي يكون أحوج لوجود والد يغطي له متطلباته النفسية والمعنوية حسب ما تفرضه عملية التنشئة الصحيحة التي توازي بين متطلباته المادية والمعنوية وتراعي حاجاته إلى العيش في ظل أسرة تسودها علاقات الود والتعاطف[67]، وهو ما قد يتنافى مع غياب الوالد الذي من شأنه أن يعيق عملية التنشئة الصحيحة للطفل، بل ومن شأنه أن يخل بالوظيفة الوالدية في انعدام القدوة التي يتوحد معها كجزء ضروري في هذه العملية[68].

ج–الفتور العاطفي وانحلال الروابط الأسرية

تتعرض الأسرة عبر مختلف الأزمنة وفي كل المجتمعات الإنسانية لجملة من المشاكل والتحديات التي تختلف آثارها وانعكاساتها باختلاف طبيعتها واستعدادات الأسرة

لمواجهتها، ولا ينفصل غياب الزوج عن هذه المشاكل من حيث أضراره وآثاره التي أخذت معالمها تتضح على الحياة الأسرية بدءا من احداث فتور عاطفي بين أفرادها (بين الزوجين أو بين الزوجين والأولاد) وصولا إلى انحلال روابطها، وإذا كان هذا الطرح يجد ما يبرره ويشرعن له مسوغاته في الدراسات الاجتماعية والنفسية الحديثة، فكيف لنا أن نؤسس له في الفترة الوسيطية وضمن خطابات تاريخية ما برح مؤلفيها يطوفون حول كعبة الحدث السياسي ويعتكفون على مواضيعه؟.

تتيح لنا نازلة وردت في فتاوى ابن رشد الإجابة عن هذا الإشكال؛ حيث جاء في مضمونها امرأة رغبت في الأخذ بشرط المغيب بعد عودة زوجها الذي غاب عنها ثمانية أشهر[69]، ويتبين من جوابه أنّ غياب الزوج عن زوجته لا يزهده فيها، وإنّما يرغبه فيها أكثر[70]، وهو ما يكشف لنا حالة الفتور العاطفي التي كانت تشهدها العلاقة الزوجية نتيجة طول غياب الزوج وانقطاع تواصله مع زوجته لا تواصلا ماديا بل وتواصلا معنويا وعاطفيا أيضا، وذلك تماشيا وطبيعة الرابطة الزوجية لقوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[71].

إنّ الفقيه ابن رشد وإن انطلق في جوابه هذا من موقعه كفقيه سعى للحفاظ على ترابط الأسرة ومنع انحلالها بعد عودة الزوج وانعدام سبب فك الرابطة الزوجية، غير أنّه أفصح وبطريقة غير مباشرة عما كان يطال العلاقة الزوجية من فتور عاطفي بغياب الزوج الطويل، مما يعيق عمليتها الوظيفية حيث تنعدم فيها أواصر المحبة والمودة فتكون أقرب إلى الانحلال والتصدع، وهذا ما أوضحته الدراسات الاجتماعية الحديثة التي عرّفت بهذا الفتور وآثاره قائلة: بأنّه:" نوع من التفكك الأسري يحصل في جانبها الوظيفي لا البنائي؛ حيث تسودها حالة من الصمت وعدم التفاعل الايجابي، وتنعدم فيها الأهداف المشتركة التي تجمع بين أفرادها"[72].

لا يحدث هذا الفتور على مستوى العلاقة الزوجية وحسب، بل ويمتد إلى علاقة الأطفال بآبائهم الغائبين عنهم؛ ذلك أنّ غياب الوالد يؤدي إلى عدم الاشباع العاطفي الذي يحتاجه الطفل كون الأسرة المخولة بذلك مما يؤثر سلبا على تواصله بوالده وبعالمه الخارجي[73]، ولربما هذا ما نستشفه من قول التادلي في معرض ترجمته للمتصوف أبي العباس أحمد بن محمد بن يوسف السالف الذكر، من نفور ابنته منه ورفضها المجيء إليه بعد غيابه عنها ثمانية عشر عاما[74]، وهو نص على قدر بساطته وعفويته يقدم الكثير من الايضاحات حول أثر الغياب الطويل في الفتور العاطفي الذي يحدث بين الآباء الغائبين وأولادهم.

د–آثار أخرى

مما يمكننا أن نلحقه بمبحث الآثار أيضا ما خلّفه هذا الغياب من مسائل اجتماعية وفقهية تعلقت بمسائل اللعان ونفي النسب الخاصة بالأطفال الذين ولدوا بعد غياب الأب وعقّدت من وضعيتهم الاجتماعية والقانونية[75]، أو ما كان يطال البنات من اجبارهنّ على الزواج قبل البلوغ في ظل غياب آبائهنّ[76]، ما يطرح مسألة الولاية وسوء استغلالها ضمن رؤية لا تنظر إلى القضية من جانبها الفقهي المحض أو التاريخي لوحده، بل ومن زاوية تحاول أن تؤسس للموضوع ضمن أرضية صلبة ذات منطلقات ومقاربات متعددة ومتقاطعة، وإن كنّا لا نبخس أهمية الدراسات الحديثة المنجزة في هذا المنحى.

خاتمة:

ختاما نقول أنّ البحث في موضوع غياب الزوج الطويل بالغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي انطلق من فرضيتين اثنتين تمثلت الأولى في وجود بواعث هامة كانت وراء هذا الغياب حيث نقلته من حالة المألوف إلى اللامألوف في الوسط الأسري، أمّا الفرضية الثانية فقد تمثلت في تأثيره الاجتماعي والنفسي.

إنّ الانطلاق من هاتين الفرضتين وخلق ترابط معرفي بينهما ضمن عملية تركيبية تركن إلى التحليل والتأويل وتتجاوز المستوى الوصفي لم تستند على المتون المصدرية لوحدها؛

إذ على أهميتها تبقى قاصرة عن تغطيته كافة جوانبه، بل وانفتحت على مقاربات نفسية واجتماعية رغم مآخذها الإسقاطية كان لها الفضل في الكشف عن بعض آثاره النفسية والجنسية التي ما يزال البحث فيها حقلا بكرا لم يفضي بكل أسراره.

أظهرت الدراسة أنّ حضور هذا الموضوع في المتن المصدري قد تباين بتباين المنطلقات التدوينية ومرجعية مؤلفيها؛ فبينما حضر في الخطاب الفقهي كإشكال امتحن مقدرة الفقيه الاجتهادية، ظهر في المتن التراجمي ضمن المرتكزات الضرورية للتحصيل العلمي، أمّا عن حضوره في المتن الصوفي فقد أخذ حظه من السجال الفكري وتوشح بلباس السياحة ليغدو ثابتا هاما في النسق الصوفي، هذا التباين انعكس على طبيعة حضوره الذي لا يعدو أن يكون حدثا عارضا في خطاباتها، كما انعكس على واقع الأسرة التي رغم كونها الأكثر ضررا من هذا الغياب فلا موقع لها ضمن بناها الخطابية إلاّ بإشارات غير ذات صلة تناثرت هنا وهناك.

على مستوى الآثار مكّنتنا المتون المصدرية والمقاربة الاجتماعية والنفسية من الوقوف على العديد منها؛ بحيث اختلفت حدتها من آثر لآخر ومن فرد لأخر(الزوجة والأولاد)، ولكنّها اجتمعت على أنّها نتاج غياب ما عادت تبعاته تشمل الغائب وحده، بل ومست أسرة بأكملها معرضة استقرارها المادي والمعنوي لهزات اختلفت ضرباتها وشدة عنفها باختلاف وضعيتها الاجتماعية والاقتصادية واستعداداتها لمواجهتها ضمن سياقات تاريخية واجتماعية خاصة.

على أنّ أهم نتيجة يمكن أن نذيل بها خاتمتنا هذه، أنّ الموضوع وعلى الرغم من قراءتنا له وسعينا إلى انفتاحه على مقاربات متعددة، غير أنّه ما يزال مثخن بالعديد من الإشكاليات التاريخية التي تتعلق بموضوع الأسرة وبأنماط العلاقات السائدة فيها وتجاذباتها؛ إذ من الإشكاليات التي يمكن أن نحيل لها وضع الزوجة المعنوي بين مسألة البحث عن الذات والاهمال الوالدي، أو ما تعلق منها بتاريخ المشاعر في العلاقات

الزوجية ودورها في التماسك الأسري من تفككه، وهو موضوع من شأنه أن يجلي الكثير من المسكوت عنه في موضوع الأسرة وقضاياها خلال العصر الوسيط.

الهوامش:

[1]– حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني(609–896هـ/1212–1465م) إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية، مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، المغرب، 2009، ص389.

[2]–فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص17.

[3]–نوال عبد الرحمن الشواكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتّى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، ط2، 2002، ص17.

[4] –المازري أبو عبد الله، فتاوى المازري، تقديم وجمع وتحقيقّ، الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر، تونس، 1994، ص158.

[5]–ابن مغيث، الطليطلي، المقنع في علم الشروط، وضع حواشيه، ضحى الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ص، ص16، 17.

[6]–نفس المصدر، ص86.

[7]– ابن العريف أبو العباس، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، جمعه، أبو عتيق بن مؤمن، درا، تح، عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993، ص، ص219، 222.

[8] –ابن الحاج التجيبي، نوازل ابن الحاج التجيبي، دراسة وتحقيق، أحمد شعيب اليوسفي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تطوان، 2018، ج3، ص636.

[9]– نفسه، نفس الصفحة.

[10] –مثل حالة المفقود التي ضرب فيها الأجل بأربع سنوات، نفسه، ج3، ص475، رقم 468.

[11] –ابن مغيث، المصدر السابق، ص85.

[12] –ابراهيم القادري بوتشيش، تاريخ العوام في مغرب العصر الوسيط بين فقر الوثائق وامكانيات التجاوز طرح ومناقشة من خلال كتب العقود والوثائق، ندوة دراسات تاريخية مهداة للفقيد جرمان عياش، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، 1994، ص70.

[13] – الغرناطي أبو اسحاق، الوثائق المختصرة، أعدها، مصطفى ناجي، مركز أحياء التراث العربي، الرباط، 1977، ص7.

[14] –نفس المصدر، ص23.

[15] –للاطلاع أكثر على تداعيات الحرب على الأسرة، ينظر الفصل الثالث الخاص بالحرب والأسرة من كتاب حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، ص، ص369–421.

[16] – نفس المرجع، ص 386.

[17] – أبو الوليد ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق، المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط1، 1987، ج2، ص1396، رقم567/ابن الحاج، المصدر السابق، ج3، 475، رقم 468.

[18] –التادلي ابن الزيات التشوف إلى رجال التصوف، تح، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط2، 199، ص159، رقم الترجمة43.

[19] – ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص1366، رقم 484.

[20] –مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه، سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 19979، ص82.

[21] –رقية بن خيرة، الآفات الاجتماعية في الأندلس ما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين(ق11–12م)، دراسة في ظاهرة الانحراف، أطروحة دكتوراه، تخصص، الحوض الغربي للمتوسط تاريخ وحضارة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2017، ص286.

[22] – ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص1366، رقم 484.

[23] –ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تاريخ اسبانيا الإسلامية، تحقيق وتعليق، ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956، ص164.

[24] –فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح، دار البيضاء، ط1، 1993، ص192.

[25] –التادلي، المصدر السابق، ص119، رقم18.

[26] –ابن رشد، المصدر السابق،ح1، ص1021، رقم297.

[27] – ابن بشكوال أبو القاسم، كتاب الصلة، تحقيق، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ط1، ص116، رقم141.

[28] –أوليفيا ريمي كونستيبل، التجارة والتجار في الأندلس، تعريب، فيصل عبد الله، مكتبة العكيبان، المملكة العربية السعودية، ط1، 2002، ص101.

[29] –ابراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصري المرابطين، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، دت، ص120 وما بعدها.

[30] –الإدريسي أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ج1، ص222.

[31] –نفسه، ص105.

[32] –ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة، شركة دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2015، ص469.

[33] –أبو الفضل الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، اعتنى به وقدم له، محمود الأرناؤوط، دار صادر ، بيروت، ط1، 1999، ص62.

[34] –عبد الحق منصف، أبعاد التجربة الصوفية الحب الانصات الحكاية، أفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص49.

[35] –ابن العريف، المصدر السابق، ص122.

[36] –ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، ج2، ص527.

[37] –عبد الحق منصف، المرجع السابق، ص52.

[38] –التادلي، المصدر السابقّ، ص139، رقم الترجمة 27.

[39] –نفس المصدر، ص102، رقم الترجمة10.

[40] –نفسه، ص165، رقم الترجمة48.

[41] –نفسه، ص161، رقم الترجمة 45.

[42] –ابن منظور، لسان العرب المحيط، تقديم، عبد الله العلايلي، تصنيف، يوسف خياط، دار صادر، بيروت، دت، ج1، ص655.

[43] –رابح طبجون، الأدب النسوي بين اشكالية المصطلح وسؤال الهوية، مجلة منتدى الأستاذ، المدرسة العليا للآساتذة آسيا جبار قسنطينة، الجزائر، العدد12، 2012، ص16.

[44] –زاهية خلافي، الطفولة في المجتمع الأندلسي ما بين القرنين التاسع والسادس الهجريين(ق10–12م)، أطروحة دكتوراه، تخصص، الحوض الغربي للمتوسط تاريخ وحضارة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2019، ص191.

[45] –علي حرب، التأويل والحقيقة قراءات تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص8.

[46] –رقية بن خيرة، الجسد الأنثوي والمجتمع الأندلسي(ق5–6هـ/11–12م)، قراءة في صوره وتمثلاته، عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي، جامعة وهران1، الجزائر، العدد 19–20، 2015، ص183.

[47] –مصطفى حجازي، سيكولوجية التخلف مدخل إلى الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط9، 2005، ص200.

[48] –ابن الحاج، المصدر السابق،ج3، ص475، رقم 470.

[49] –الزجالي أبو يحي أمثال العوام في الأندلس، مستخرجة من ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تحقيق وشرح وتقديم، محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب، د.ت، ج2، ص229، رقم1007.

[50]–البشير بوقاعدة، غياب الأب المفرط عن محيطه الأسري وتأثيره في حياة الطفل بالمغرب الأوسط بين القرنين 7–9هـ/13–15م، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران1، الجزائر مجلد10، العدد2، 2020، ص65.

[51]– ابن الحاج، المصدر السابق،ج1، ص74، رقم 94.

[52] –نفسه، ج2، ص3910، رقم340.

[53] –الونشريسي أبو العباس، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1981، ج3، ص319.

[54] –ابن الحاج، المصدر السابق،ج3، ص537، رقم 576.

[55]–ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص337، رقم78.

[56] –ابن الحاج، المصدر السابق، ج3، ص475، رقم468/ابن رشد، المصدر السابق، ج1، 598، رقم133.

[57]–المقري شهاب الدين أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1998، ج4، 284/جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي(من سقوط الخلافة ق5هـ/11م إلى سقوط غرناطة ق9هـ/15م)، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، 1994، ص152.

[58]–ابن الآبار ، الحلة السيراء، حققه وعلق على حواشيه، حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ج2، ط2، 1985، ص76، رقم12.

[59]–نفس المصدر، ص78، رقم 124.

[60]– ابن بسام أبو الحسن علي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، إحسان عباس، دارالثقافة، بيروت، 1997، ج2، ق1، ، ص79، 80.

[61]–مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري السلوكيات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة، عبد الله زارو، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص5.

[62]–المازري، المصدر السابق، ص، ص156، 159.

[63]–ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، 390، رقم340.

[64]–ابن حزم أبو محمد علي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق، احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ص166.

[65]–المازري، المصدر السابق، ص156.

[66]–التادلي، المصدر السابق، ص214

[67]–مصطفى حجازي، الأسرة وصحتها النفسية المقومات الديناميات العمليات، المركز الثقافي، الغربي، المغرب، ط1، 2015، ص25.

[68]– هدى محمود ناشف، الأسرة وتربية الطفل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمتن، 2006، ص74.

[69] –ابن رشد، المصدر السابق، ص ج1، ص785، رقم185.

[70] –نفس المصدر، نفس الصفحة.

[71] – سورة الروم، الآية20.

[72] –نيروز محمد أبو جميل، سميرة عبد الله الرفاعي، الفتور العاطفي في العلاقة الزوجية أسبابه وعلاجه، دراسات العلوم التربوية، جامعة اليرموك، الأردن، مج44، ع2، 2017، ص184.

[73]– حنان عبد الحميد العناني، الطفل والأسرة والمجتمع، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، 200، ص، ص65،66.

[74] – التادلي، المصدر السابق، ص165، رقم الترجمة48

[75] –ابن ورد الأندلسي، نص جديد من فقه النوازل بالغرب الإسلامي أجوبة ابن ورد الأندلسي، دراسة وتحقيق، محمد الشريف، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ط1، 2008، ص131، رقم 78، ص132، رقم79/ابن رشد، المصدر السابق، ح1، ص671، رقم156.

[76]–عديدة هي النوازل الواردة في هذا المنحى، ينظر ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص273، رقم49، ص283، رقم51، ص284، رقم57.